النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

١ — رأي السيد محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

لما وضع محمد علي الكبير اساس النهضة العربية في مصر، وادخل اليها العلوم المادية على اختلاف ضروبها، كانت الشام في آخر ادوار التقهقر والقصور، ليس فيها شيء يقال لهُ علم او ادب، ما خلا بقايا ضئيلة في بعض الجوامع والبيع والاديار. ولما نضج العلماء والمترجمون وكثر الاطباء والمهندسون والحقوقيون في مصر، جاءت الشام بعض جمعيات التبشير تبثّ مع مذاهبها الدينية شيئاً من اللغات والعلوم المادية، ولم تمضِ ثلاثة عقود من السنين حتى اخذت مصر والشام تتسابقان في بث المعارف، وبدأ انتشار العلوم المادية في القطرين بمقياس واسع. مصر تُنهضها حكومتها وفي رأسها آل محمد علي الكرام، والشام ينهضها الغرب لغرض الدين والسياسة، وكلما كانت شعوب النصرانية تهوي بافئدتها الى القبر المقدس، او تحاول كل دولة تكثير سواد العارفين بلغتها ومذهبها، كان الشاميون يستفيدون من هذه المنافسة خصوصاً في الباب الذي يسمونهُ بالتمدين

ولقد كان هذا النور في الشام مقصوراً على المسيحيين اولاً، على نحو ما كان واقفاً على المسلمين دون المسيحيين في مصر، فلم يلبث المسلمون ان انشأوا في الشام مدارس ابتدائية ووسطى، بواسطة الحكومة اولاً ثم بوسائط الافراد، ومَن تعلم العلم العالي منهم عمد الى مدارس الاستانة او الى مدارس الاجانب في الشام او في اوربا. واحسَّ العراق بالنقص ولكن جاء متأخراً عن الشام لتلمس الكمال. اما اليمن والحجاز ونجد وسائر ديار العرب فقد ظلت في سبات الاَّ قليلاً، على ما كانت عليهِ وما زالت كذلك طرابلس وبرقة والمغرب الاقصى والادنى والاوسط

ويستثنى من ذلك القطر التونسي فانهُ لا يدانيهِ قطر من الاقطار العربية، في قلة عدد الأميين وكثرة القارئين والكاتبين في الجملة. وكانت علوم الادب والدين عندهم في معظم العصور موفورة

فساقت صدور كثيرين من المتعلمين في الشام وتبرموا بكنداها فلم يسعهم الاَّ الهجرة الى مصر واميركا ، ومنهم من هاجر الى السودان ، فانتشر الشاميون في اقطار العالم انتشار الفينيقيين في حوض البحر المتوسط قبل مئات من الاعوام . ورأينا بعد الحرب العامة العراق ثم الحجاز ونجد واليمن تهب الى تلمس العلم وتخرج في مدارس الشام ، او في مدارس لها انشأتها في اقطارها وكثير من معلميها ومديريها من الشاميين . والشاميون ما برحوا منذ القرن الاول للهجرة دعاة علم ونقل وتبشير . وهذا من الظواهر الغريبة فيهم ، يهجرون ارضهم الجميلة الواسعة و ينهضون بغيرهم ليعيشوا عرضاً قليلاً . والشاميون ما برحوا منذ عرف تاريخهم ارباب اقدام على الارتحال لا يدهشون للنوى ، ولا يفتأون مع هذا يذكرون موطنهم الاول

كان الذين يشدون شيئاً من الطبيعيات والرياضيات قبل خمسين سنة يشار اليهم بالبنان واندر من الكبريت الاحمر . واليوم لا تجد في المدن والقرى في مصر والشام شاباً يحمل شهادة ثانوية او اولية الاَّ وهو مشارك في بعض هذه العلوم مشاركة حسنة ، ملمٌّ الماماً لا يأس به بالعلوم المعروفة بالعلوم « الانيكلوبيذية » . جرى هذا بعد ان نسلت القرون ، والقوم لا يحرصون على شيء من العلم حرصهم على علوم الدين وما يلزمهُ من علوم اللسان ، وكان اذا نبغ فرد في الفلسفة او الفلك او العلم الطبيعي يهان ويرذل ، وربما أعتقل وقتل . ثم تمَّ هذا بعد ان اضطهد الدينيون الدنيويين اضطهاداً لا يشبههُ ويفوق عليهِ الاَّ اضطهاد رجال الكنيسة لرجالات العلم في اوربا على عهد قرونها المظلمة

خط الجزء الاول من المقتطف الذي صدر منذ خمسين سنة ، واتلَّ فيهِ اسماء من آزروا في انشائهِ لا تجد فيهم غير مسلم واحد ، وباقيهم مسيحيون او غرباء عن العربية تعلموها واخذوا يؤلفون فيها . ثم فتش في اعطاف السنة الخامسة والعشرين من هذه المجلة تجد المسلمين دخلوا ميدان العلوم يشاركون اخوانهم الذين قرأوا في مدارس المرسلين ثم تعال واقرأ مجلد السنة الماضية تجد فيهم المسلمين اكثر عدداً وهم يخوضون عباب الابحاث المادية والادبية والاجتماعية خوض المشتغلين بهذه العلوم من الغربيين

اصبحت مصر بمعارفها ارقى من اسبانيا اليوم ، ولا تقل كثيراً عن ايطاليا قبيل وحدتها ، ولا تقصر عن المانيا وفرنسا اواخر القرن الثامن عشر ، وهي اليوم في بعض العلوم كالسياسة والقضاء على مستوى ارقى الممالك الغربية . وما نبت فيهِ اوربا واميركا من تأليف النظم الاجتماعية ونشر العلوم المادية قرونًا ، اقتبسهُ هذا الشرق العربي القريب

في سنين قليلة ، بيد انهُ لم يقدر ان يجاري اليابان وان جاءت هذه الى ساحة الحضارة بعد مصر . لان احوالاً خاصة ساعدت اليابان واهمها الاستقلال ، و بعدها عن تنافس اغراض دول الاستعمار . ومن كان زمام امره بيده استطاع النهوض اكثر من المقيد المقطور بغيره . ولو لم يقم محمد علي الكبير قومة المطومة وينزع يدهُ من يد الدولة العثمانية ، لتأخرت النهضة قرناً آخر ، ولما استطاع الشاميون بعد حين ان يعاونوا قليلاً في نهوض مصر و بعض الامصار المجاورة . فاستقلال مصر بعض الشيء حفظ اللغة العربية من الدثور وكان من اثر ذلك ان تمثل مصر المحبوبة عامة العلوم المادية قبل غيرها ، وتنقلها الى لسان العرب فيخرج منها العالم العربي بالطب والقضاء والهندسة والسياسة وغير ذلك من العلوم الحديثة

ولولم تعم هذه العلوم ، ويدرس الناس الغرب حتى دراستهِ ، لبقي الشعر والكتابة والخطابة ايضاً ترسف في قيود القرون الماضية من عصور التدلي . وربما ضاعت اللغة ، واللغة مفتاح سعادة الامة اذا فقدتها فكل شيء مفقود . فالعالم العربي مدين لمصر باكثر اسباب نهضتهِ ، بل ان العالم الاسلامي لولا كتب مصر لكان في تراجع عميق ، ولما مال الى هذا التقدم المستمر . واستفاد العالم العربي ايضاً من كل قوة جاءتهُ من طريق الشرق ومن طريق الغرب لانهُ كان وما يزح كالصلة والعائد بين المعروف من قارات الارض القديمة . ومن كان يظن ان ايران والهند وغيرهما من الممالك طبعت ولا تزال تطبع مئات من كتب العرب والاسلام ، ومن كان يعتقد ان الغرب منذ اكثر من ثلاثة قرون يطبع كتب اسلافنا و ينشرها لنفع العلم والمدنية . وربّ ساعٍ لقاعد

اثرت هذه المظاهر العلمية في عمران هذه الاقطار تأثيراً حسناً ، وعلى نسبة اخذ القطر الواحد بحظ من هذه المظاهر ، تنقلب حياتهُ ومناهج التفكير في بنيهِ ، وما نراهُ مثلاً من تنظيم طرق الري وطرق الحديد ورقي القضاء والزراعة وانشاء البيوت المالية الوطنية والشركات النافعة في مصر ، وما يظهر من هندسة البناء و بعض الصنائع الجميلة والصناعات الزراعية المهمة في الشام هو من آثار العلوم التي لقنناها وتمثلناها وقامت بايدي ابنائنا خاصة

زُرْ بيوت المدن والقرى في مصر والشام وقارن بين مرافقها واساليب صحتها وهنائها ولبوس اهلها وفرشهم وما كان لهم من ذلك منذ نصف قرن تجد التبدل محسوساً ملموساً. استمع اليوم لاحاديث الخاصة والعامة وقسها باحاديثهم منذ خمسين سنة ترَ الارض بدلت غير الارض او كادت

ان زراعتنا اليوم غيرها بالامس ، وتجارتنا الآن غير تجارتنا البارحة . وهكذا قل في صناعتنا واعمالنا الحرة وتمادي دراستنا ، ونحن مع هذا نلوب على الكمال لنستر مواطن النقص والشعور بالنقص اول مراتب الكمال ، كما ان الجهر بالقول اول محطة الى بلوغ لامل من العمل

ولا تنسَ منازعنا القومية والوطنية ، ومن امثل الامثلة فيها حملة الصحف في مصر تلك الحملة الشعواء على مستشار المعارف الانكليزي (دنلوب) لمحاولته إحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في مدارسها ، وتلك الحرب التي اثارها العرب على الترك باللسان والقلم يوم قام دعاة التتريك في السلطنة العثمانية بُعَيْد نشر القانون الاساسي سنة ١٩٠٨ واحتالوا لاماتة العربية واحياء التركية في الولايات العربية

***

كل هذا كان بفضل ما دخل علينا من ضروب المعارف الجديدة ، واساليب التهذيب الحديث الذي انزلناهُ بين اظهرنا على الرحب والسعة وتلظت شفاهنا لتقبيل محياهُ الجميل اجيالاً وعصوراً

العالم كلهُ سائر في طريق المادیات ، ولكن المغريات فينا تمت ايضاً على نسبة ذلك ، الاَّ قليلاً من ضعف الاخلاق ، جاءنا من هذا التطور الجديد ، وهو يعالج اليوم بالطرق الناجعة ، ولا تمضي ثلاثون او اربعون سنة حتى تتبدل هذه الحيثة ، وتنشط هذه الشعوب من عقالها ، فتؤلف شعباً واحداً لقلَّ بينهُ الفوارق ، فيقاتلوا على دين القومية ، ويحموا حمى الجامعة العربية كما قاتلوا في القرون الماضية عن اديانهم ومذاهبهم ، وناضلوا في الجاهلية عن احسابهم وعصبياتهم

الصحف العربية العديدة التي يصدرها الشاميون في الاميركيتين ، والحضارمة اهل حضرموت في جزائر جاوه وصومطرا ، والدروس العربية التي يجودها الهنود والفرس بل معظم الجامعات في اوربا واميركا هي نتيجة حب العرب والعربية . والعربية تنتشر حتى في البلاد الغير العربية انتشاراً غريباً ، ولا يضيرها اليوم جعل اللغة العبرانية في فلسطين مثلاً لغة رسمية كاللغتين العربية والانكليزية ، فالعبرانية ستنتشر في دائرة ضيقة ، وتبقى فلسطين بما اقتنيَ فيها من مدارس جامعة ووسطى وابتدائية لنشر العبرية ، الجزء المتمم للشام وحلقة الوصل بين القطرين الشقيقين . تبقى عربية بمنازعها ومناحيها ، ويكون شأن العبرية شأن القبطية في مصر والسريانية في الشام والجزيرة والعراق ، اي

لفة افراد معدودين لا لتعدادهم الى غيرهم . واللغات الميتة لا تحييها العوامل الصناعية الاّ الى اجل مذكور تقف عنده . والعبرة بالسواد الاعظم خصوصاً اذا صحت عزيمته ان يحيا حياة طيبة ، وتشبع افراده وجماعاته بعقيدة الاقتداء بمن طابت لهم حياتهم بسعيهم وجاهدوا في المجتمع البشري جهادهم فاورثهم عزة ومنعة

وخير النهضات كخير الثروات ما قام بايدي ابنائه ، وصار بسير القانون الطبيعي ، وبذلك يثبت ويدوم . ولا يبقى الاّ الاصلح في عالم الكون والفساد . وكل ثورة اجتماعية او فكرية هي محصول الكتاب والكتّاب . والعقل العربي الذي شاد في القديم قصر غمدان وسد مأرب ، وانشأ في الاسلام المدرستين النظامية والمستنصرية ، وعمّر اقصى القدس وأموي دمشق ، وازهر مصر وقسطاطها ، وقصور الحمراء والزهراء ، وبدائع قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة وسدود بلنسية ، لا يستحيل عليه يوم يمثل هذه المدنية الحديثة حق التمثل — على ان تكون محفوظة له مشخصاته ومقدساته — ان يعمل ما تبتهج به النفوس ، ويقال فيه لاعطر بعد عروس

العرب في عددهم اكثر من الدانيركيين او الفنلانديين بنحو خمسة وعشرين ضعفاً ، وتاريخهم ذاك التاريخ الباهر ، وآثار عقولهم في المدنية تلك الآثار ، وبلادهم باعتدالها وتوسطها وغناها معروفة موصوفة ، فماذا ينقصهم ليؤسسوا دولة بالعلم متينة الدعائم ، وهم اصحاب تلك السابقة الشائقة ؟ لا جرم انهم يعوزهم شيء من النظام والتنظيم وتسلسل الفكر وتوجيه وجهتهم الى غاية الكمال والتخصص والتدقيق في كل ما ينقصهم من اصناف العلوم ، وما هو منهم ببعيد

دمشق محمد كرد علي

— ❀ —

٢ — رأي الاستاذ سامي الجريديني المحامي

في التاريخ نهضات كثيرة منها ما كان سياسياً نقل السلطة من يد الى اخرى ومنها ما كان اجتماعياً قضى على نظم موروثة وتقاليد معبدة ومنها ما كان ادبياً غيّر نظام التفكير وفك العقل من قيوده

فهل عندنا في الشرق مثل هذه النهضات ؟ او بالاولى مثل هذه الثورات ؟

ولماذا نقول النهضة في «الشرق» ، اني لا احب هذا التعميم — فما هو الشرق ؟ ومن هم الشرقيون

ولماذا نسير وراء هذا التقسيم الذي لا يعمل فيه فصل العالم الى شرق وغرب

فقد اساء [illegible] العالم وانما [illegible] شرقاً وجنوبها شرقاً ويسارها غرباً تر مصر بحر افريقيا في الجنوب لا في الشرق . بل انت ترى اوربا نفسها شرقاً اذا قيست باميركا

لانهُ خطر لقدماء الاغريق ان يقسموا العالم الى شرق وغرب يجب ان نسير نحن وراء هذه القسمة

انها ليست على شيء من حقيقة الجغرافيا

وهل يصح ان نكون نحن شرقيين مثل اليابانيين والصينيين ونُبعدنا عنهم جنساً ودماً ودياناً بعد ما بين السماء والارض . وهل يصح ان يكونوا اقرب الينا منا الى اليونان والبلغار والتليان وبيننا وبين هؤلاء رباط عديدة لا تجدها بين الصين ومصر مثلاً

او نقصد الى القول بان النهضة في مصر ترمي الى انهاض الحجاز والعراق وفلسطين وسوريا وتركيا وما الى هذه البلدان التي تجمعنا بها جامعة قديمة

الحقيقة اننا لا نجرؤ على القول بالقومية بعد . اننا لا نجسر ان نقول ثورة مصرية او ثورة سورية او ثورة تركية فنصمم ونقول شرقية كاننا لم نعتد بعد التفكير تفكيراً قومياً لحداثة عهدنا بمثل هذا التفكير . اللهم الا الاتراك فقد ساروا على غير ما نسير نحن عليهِ ولعلهم شدوا الرحال في سيرهم شداً سريعاً قد لا يكون ممدوح العاقبة لبعد ما بين الغرض الذي يرمون اليهِ وتاريخ عنصرهم المعروف . ولكنهم في نظري الشعب الشرقي الوحيد السائر الى غاية محددة على طريق محددة — لذلك يصح لنا بحق ان نقول « نهضة تركية » فانها ثورة سياسية واجتماعية تهيأ لها ما يتهيأ لكل الثورات — زعيم يقود رامياً الى غرض وسير حثيث الى هذا الغرض وجهاد مع اجنبي اثار فيهم روح القومية باستفزاز عواطفهم وهكذا سبيل الشعوب في تكوين قوميتها . دع عنك ما على هذه النهضة من انتقاد ليس هنا محل البحث فيهِ

اما في ما سوى ذلك فاين النهضات في « الشرق » اذا سلمنا جدلاً بهذا التقسيم الذي يفصل العالم الى شرق وغرب

نحن من الذين يعتقدون ان الحضارة الغربية خير الحضارات التي يحسن علينا اقتباسها كما اننا من الذين ينظرون الى الامر الواقع فيرون انها هي الحضارة السائدة العالم ونحن

من الذين يعتقدون ان طريق نجاتنا في مسالمة هذه الحضارة وتكييف حضارتنا عليها تكييفاً لا يناقضها بل يماشيها

ذلك ان التاريخ يقص علينا قصص اصطدام الشرق بالغرب منذ العصور الاولى حتى الساعة فما قصّ الاّ حديث اصطدام كانت نهايتهُ انهزام الشرق امام الغرب — فالعاقل من اختبر وعرف ان يتلمس طريقاً غير طريق جربهُ فقادهُ الى مواطن الخطر

ونحن من الذين يعتقدون انهُ لا بقاء لنا في معترك الحياة الدولية الاّ اذا كوّنا قوميات شرقية مستقلة مثل القوميات الغربية. فكما انك لا تطمع في تكوين شركة تجارية او جمعية ادبية الاّ اذا عثرت على « شخصيات » مستقلة هي افراد الرجال كذلك لن نكون اهلاً لدخول المجتمع المتمدن ان لم تكن لنا شخصية صحيحة وهي القومية بما تعنيهِ هذه القومية من معان وما تفرضهُ من تبعات وحقوق

فليست الحضارة الغربية لباساً يرتدى او لغة يرطن بها بل هي اساس عميق للحرية: حرية الفكر والقول والعمل ، وبناء شامخ للنظام : النظام القائم على هذه الحرية

فهل عملنا على اقتباس هذه المدنية ؟

انني رغم ما بي من التشاؤم عندما ادرس تاريخنا القديم وعند ما انظر الى حاضرنا اني رغم ذلك اظن اننا وقد احتككنا مكرهين بالغرب — قد بدأنا نثور ثورة فكرية لا بأس بها

فالتفكير الحرّ اساس كل نهضة سياسية كانت ام اجتماعية . ولا تسل عما يؤدي اليهِ هذا التفكير . لا . دعهُ يسر . فهو يقاوم ويُقاوم وتصطدم حريتهُ بحريات اخرى وهكذا الى ان يتمّ النصر للفكر الصحيح

فما لا شك فيهِ ان جرثومة التفكير الحرّ بدأت في مصر وفي سوريا منذ نيّف وخمسين عاماً — بدأت بكتّاب فكروا تفكيراً حرّاً صدم ما في الجماهير من عقيدة موروثة فوقفوا في سبيلها ولكن الفكرة تمت فجاءت بقوم قاوموا استبداد الحكام في عز جبروتهم الطاغي ووقفوا في وجه رجال الدين يضعون عليهم جبلهم فما زالت حتى زحزحت ما كان لتفوذهم من مقام

على ان التفكير الحرّ في مصر وسوريا لم تتح لهُ عوامل سياسية تساعدهُ

فقد كان اختلاف الحكام في اوربا وتضارب مطامعهم السياسية مما جعل بعضهم ينصر لوثر في اصلاحهِ وبعضهم يشجع الهوجنوت وبعضهم يحمي فولتير وهكذا وجد

المفكرون الاحرار الفقراء من يأخذ بايديهم حتى غير قصد نـاروا يحملون شعلة فكرهم الى ان حرقوا الهشيم القديم

اما عندنا فقد اتفق فيما مضى الجمهور مع حكامه المستبدين فكانوا يقاومون كل تفكير حرّ اينما ظهر

ولكنهُ رغم هذا ظلّ حيًّا وها قد بدت طلائعهُ تظهر ظهوراً لم نعهدهُ من قبل

فهل يتمّ لهُ النصر او يظلّ محصوراً في دائرة ضيقة كما كان في الماضي فلا يحيا ولا يعيش . لا اعلم

ان تاريخ اضطهاد التفكير الحرّ لتاريخ مجيد . ومجدهُ تاج يلبسهُ كل هؤلاء الذين اضطهدوا وعذبوا وحوكموا وسجنوا في سبيل تفكيرهم

وها قد ذهب الآمرون بالتعذيب والناهون عن الحرية ولم تبقَ الاَّ ذكرى الابطال — ابطال المفكرين تفكيراً حرًّا

فان نحن اجتزنا العقبة وعبرنا السبيل كما عبرهُ اسلافنا المفكرون الاحرار غير مبالين بما نلاقيه من اضطهاد او عقاب فاننا نكون حقًّا قد وضعنا الاساس المتين ونكون قد مهّدنا الى نهضة اجتماعية وسياسية تأتي باسرع مما نظن فنتبوأ مكاننا في مجتمع الحضارة الصحيح

فالحرية اساس كل بناء في حضارة جديرة بان تعيش . فاذا قام شعب بنهضة سياسية لا تكون الحرية اساسًا فيها فلن تكون تلك النهضة الاَّ قلقًا غايتهُ التخلص من نير الى نير وتقلاً للحكم من يد الى يد اخرى — وهذا ما نعوذ بالله منهُ

مصر القاهرة سامي الجريديني

٣ — تتمة رأي الامير شكيب ارسلان

طلب العلم في الغرب

نهضت هذه الرقعة الشرقية في تعلم اللغات الاوربية والفنون الغربية فتجد الوفًا في سورية يتكلمون بالافرنسية والانكليزية والوفًا يتكلمون بهما في مصر . وتجد في باريز ولندن وبرلين وسويسرة وفينا ورومة الوفًا من الشرقيين يحصلون مختلف العلوم ويتعلمون الصناعات . ولما كنت رئيس النادي الشرقي في برلين كان عندي مشتركون من الطلبة المصريين نحو مائة وعلمت ان المصريين الذين يطلبون العلم في الجامعات الالمانية يبلغون

٤٠٠ ومن المصريين مئون أخر يطلبون العلم في لندن و باريز وروما وڤينا وجنيف وفرزان واما السوريون والعراقيون فنهم في المانيا نحو المائة وضعف ذلك في فرنسا وعشرات في بلاد الانكليز وعشرات في سويسرة

نهضة اللغة العربية

هذا واما اللغة العربية العزيزة فقد طارت في هذه الخمسين سنة بجناحين وخلتها عادت الى جلالها الماضي وعنفوانها القديمة . فكثر سواد الكتّاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالمئات ان لم يكن بالالوف . ونبغ منهم فحول يمكن الانسان ان يلزمهم في صفوف المنشئين والشعراء من اهل القرون الاولى للاسلام عند ما كانت اللغة في ابان سورتها . فلا تنظر في جريدة الاّ تجد فيها من النظم الفائق والنثر الرائق لشبان لم تسمع في عمرك باسمائهم ، هذا عدا المفلقين والعبقريين الذين سارت بذكرهم الركبان . ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق معشار العدد الذي تجدهُ في يوم الناس هذا من هذه الطبقة . وكان اذا نبغ شاعر او برع كاتب لذلك العهد ضرب به المثل لتفرّده وندور من يباريهِ في صناعتهِ فلو نشرتهُ اليوم من قبرهِ وعرضتهُ في الجمع لوجدت من امثالهِ كثيراً وان كانت لا تزال لهُ طلاوة فيكون في صف المجيدين لا في صف العبقريين . واحسن من هذا ان الكتابة لم تتقدم في فصاحة الجمل وتنقيح العبارات فحسب بل علت باسلوبها الحكيم وتشبعت بالمعاني التي اوجدتها حركة العلم الحديثة فتبدّلت الصناعة اللفظية والسجع القديم بالصحة العلمية والانشاء المرسل

وقد كثر في القطرين الاساتذة في علم الحقوق ونبغ منهم من يطاول المحامين الاوربيين في اتقان المهنة ولكنهم بمصر اكثر منهم بالشام لما في مصر من استجمار العمران الذي ليس في الشام كما ان خريجي الهندسة بمصر اكثر جدًّا منهم في سورية وذلك بسبب ان الزراعة في مصر ارقى جدًّا منها في سورية

واما الطب فحسبك ان الدولة العثمانية اخذت جيشها في الحرب الكبرى مائتي طبيب ذي شهادة من جبل لبنان فقط هذا عدا من بقي منهم في البلاد . وترى كثيراً من خريجي مدارس الطب في سورية ومن السوريين المتخرجين في مكاتب الطب في الاستانة واوربا يتعاطون صنعتهم في مصر والسودان والعراق وغيرها . و بالاجمال الطب فن لا يقصر فيهِ الشرقيون عن الغربيين فكان عندهم فيهِ ملكة فطرية ورثوها من اوائلهم

هجرة السوريين الى اميركا

ومن اهم مظاهر النهضة الشرقية العربية المهاجرة التي قام بها السوريون الى اميركا واستراليا وجزائر البحر المحيط وافريقية فصاروا في مناكب هذه القارات المتنائية ولم تكد تخفى عنهم منها زاوية وكانوا ابناء حلوا يتزوون سواهم ويتحدث اهل تلك البلاد التي نزلوا بها بفرط ذكائهم وحسن قيامهم على العمل . ولما كانت الجرائد من احسن المقاييس للرقي نقول ان في الاميركيين الشمالية والجنوبية نحو ٣٠ جريدة ومجلة بهذا اللسان العربي المبين وان في الجالية السورية هناك من الكتّاب والشعراء والادباء والاطباء والفلاسفة نفراً تفتخر بهم اوطانهم . وترى هذه الجاليات في وسط هاتيك الامم العديدة اشبه بجزائر عربية في اوقيانوس امم غريبة قد احتفظت تلك الجزائر بلغتها وآدابها واذواقها وهذا برهان الاصالة والنباهة وعلو الهمة فإن الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بانسان . وقد اسس السوريون في البرازيل مدارس خاصة بهم يعلمون فيها اولادهم اللسان العربي والآداب العربية إشفاقاً على جنسيتهم ان تذوب في غيرها . وحبذا لو اقتدى بجالية البرازيل سائر الجالية العربية في اميركا

ازدياد الثروة

ولقد كان من ثمرات هذه المهاجرة ان تسرّب الى سورية اموال لا عهد لها بها فارتفعت اثمان الاراضي ارتفاعاً زائداً في جميع انحاء سورية واصبح ما كان يساوي من الارض عشرة جنيهات يرتفع في عشر سنين الى مائتين وثلاثمائة جنيه فاكثر . وظن بعضهم ان ارتفاع اثمان الاراضي هذا ناشئ عن وجود اليهود الصهيونيين في فلسطين ومغالاتهم في شراء الاراضي وهو رأي لا يوجد اعرق منهُ في الوهم اذ ان الاراضي في سورية الشمالية حلب وانطاكية وحماه وحمص واللاذقية وفي سورية الوسطى دمشق وحوران وجبل لبنان وطرابلس وبلاد بشارة قد ارتفعت اثمانها كما ارتفعت في فلسطين واكثر . فالاصح في ارتفاع اثمان الاملاك هو ما يأتي : امتداد السكك الحديدية التي لم تكن من قبل فصار يمكن اصدار الغلات الى الخارج . ثانياً ارتفاع اسعار كثير من الحاصلات بزيادة المقطوعية العامة . ثالثاً درّ اخلاف المهاجرة بالاموال الطائلة . وكان من نتائج المهاجرة ان المهاجرين بعد ان شاهدوا في المهجر ما شاهدوهُ من المدنية الباهرة والزخرف الآخذ بالابصار والبنيان الشامخ صارت تأنف نفوسهم من الاقامة في تلك المساكن الحقيرة والاعشاش التي درجوا منها فلما رجعوا الى الاوطان بذلوا قسماً كبيراً

من الاموال التي اقترفوها في تشييد منازلهم الانيقة رحبة فارهة في العلو وفي تزيينها بالمفروشات النفيسة فجرى انقلاب عظيم في المساكن وفي نوع المعيشة وصارت القرية التي كنت لا تراها من قبل الاَّ بعد ان تصير فيها من شدة اطمئنانها وحطتها اذا دخلت فيها اليوم فلنتها مرَّ من رأى لعهد بني العباس. وكيفما انقلبت لاسيما في القرى والدساكر التي كانت معروفة بحقارتها لا ترى الاَّ قصوراً ممردة وصروحاً مشيَّدة

هجرة الحضارمة

وان في العرب جيلاً لا ينوقهم السوريون في الاقدام على المهاجرة ولا في ترك الآثار الباقية حيث انتجعوا ألا وهم الحضارمة . وليست نهضة اهل حضرموت للهاجرة وقطع البحار شيئاً جديداً بدا منذ خمسين سنة او مائة سنة بل هم اشبه الامم بالفينيقيين — والفينيقيون اصلهم من جزيرة العرب — هبّوا من على عنق الدهر فارتادوا سواحل الحبشة والصومال وزنجبار والهند والجزر التي في تلك البحار وأثروا الآثار وسادوا الاقوام وهذا كان في الجاهلية فلما ظهر الاسلام حملوا الى تلك الاقاصي الحضارة العربية والشريعة الاسلامية واليك شذرة من فصل عن اهل حضرموت نشره في مجلة الزهراء اخيراً الاستاذ السيد محمد بن عقيل من نخبة فضلاء جزيرة العرب قال :

« لم تزل الهجرة من دأب الحضرميين منذ عرفهم التاريخ وقد ملأوا سواحل الصومال وغيرها من شمال افريقية في سابق العصور قبل الاسلام وبعده. وطالما انتشرت جالياتهم في العراق ومصر والسودان والاندلس (الامام ابن خلدون صاحب التاريخ كان حضرمياً) وغيرها بعد الفتح الاسلامي فكان لها ذكر واثر لا ينسى. ولنشاطهم في الاسفار وشغفهم بالتجارة واعتمادهم على الكسب من البلاد البعيدة توغلوا في افريقية فاسلم بدعوتهم من أسلم من الحبشة والصومال وشرقي افريقية الى رأس الرجاء الصالح ومن في الجزائر التي بجوار تلك السواحل مثل مادغشكر وجزائر القمر وكذا ايضاً جل من اسلم من سكان الشطوط الجنوبية من الهند ومثلها الشرقية منها و بعض من في داخلية تلك الأقطار ومن في برما وسيام وسومطرة وجاوه وفيلبين » الى ان يقول « وقد صار للحضارمة هناك عن كبير ونفوذ واسع النطاق وثروة طائلة وامارات متعددة ولم يزل الى الآن يبدو من ذلك شيء له قدر ان حفظوه »

اشار السيد الحضرمي بذلك الى ان نفوذ الحضارمة غلبت طبع الدول الاوربية المستعمرة كالانكليز في زنجبار والصومال وكالالمان في دار السلام وكالفرنسيس في

ماداغسكر وجزائر القمر وكالهولانديين في جاوه وسومطره وهلم جرًّا . ولذلك يصح ان نقول ان بسطة العرب هناك في غيض لا في فيض . على ان القهقرى وقعت في سلطنة عمان اكثر مما وقعت بحضرموت فقد كانت هذه السلطنة منذ مائة سنة تملك مائة بارجة حربية وكانت اقوى دولة بحرية بعد انكلترا في بحر الهند فانحطت اليوم الى امارة بسيطة لا شأن يذكر لها . ولكن همة الحضارمة في الاسفار والمعايشين في تركيب البحار لم تفتر . ولاهل جزيرة البحرين والسواحل العربية في خليج فارس الهمة القعساء والاقدام العظيم في الغوص على اللؤلؤ ويقدر الداخل منهُ كل سنة للغواصين واصحاب رؤوس الاموال الذين ينفقون على المغاص بنحو مليوني جنيه

ارتقاء الزراعة

ونعود الى مصر والشام والعراق فنقول انهُ لا مشاحة في كون الزراعة قد ترقت بمصر ترقيًا جعلها البلاد الزراعية الاولى في الشرق الادنى . ولا نبالغ اذا قلنا انها من الطبقة الاولى في الزراعة في العمور كلها قد تلاقت في رقي زراعة وادي النيل الطبيعة مع الصناعة

واما سورية والعراق فالترقي الزراعي فيهما لا يزال ضئيلاً بطيئًا وان استعمال المحاريث الجديدة على البخار والكهرباء وآلات الحصاد والدراس لا يزال نادراً في بلادنا الاَّ في المزارع الصهيونية في فلسطين . ومن الغريب ان الماكنات الزراعية الحديثة فشا استعمالها في بلاد اطنه من تركيا وبجوارها السوريون ينظرون الى ذلك وينظرون الى الصهيونيين بفلسطين ولا يتحمسون ولا يعدلون عن المحاريث القديمة والحصاد باليد والتذرية باليد مع ان الفرق بين القديم والجديد من جهة الغلة قد يبلغ النصف

ومع هذا التخلف كلهِ في استخدام الادوات الجديدة الاَّ نادراً تجد الحاصلات قد تضاعفت بصورة مدهشة فقد استغلت قبل الحرب العامة عن معدل زيادة الاعشار التي تجبوها الحكومة فظهر لي ان اللواء الواحد كلواء نابلس او عكا مثلاً كان قبل بعشر سنوات يرفع منهُ ٦٠ الف جنيه سنويًّا من الاعشار فاصبح يرفع منهُ ٢٠٠ الف جنيه . وهذه الزيادة كلها في مدة عشر سنوات . فكيف لو اعتنى السوريون بزراعتهم اعتناء المصريين. ومما لا يزال ويا للاسف مهملاً في سورية والعراق امر الري بواسطة الآلات الرافعة مع وجود انهر كدجلة والفرات والعاصي والشريعة كانت مياهها بواسطة المحركات البخارية تروي كل ما في البلاد من المعاطش والمجادب وكاد ينتفي الجهل نتريبًا. فالانهر جارية والارضون تشرق ظمأ كالعيس في البيداء يقتلها العطش وقرب الماء فوق ظهورها

الا ان العراق نهض في هذه السنوات الاخيرة بعد الحرب نهضة تذكر في الزراعة وكثرت على ضفاف دجلة الآلات البخارية الرافعة وازداد دخل الاراضي ازدياداً مطرداً سنة فسنة وسيكون للعراق مستقبل زراعي باهر لامراء فيه وتكون الرقعة الزراعية التي تلي مصر

الصناعة

واما الصناعة فلا تزال في الشرق الادنى قاصرة عن غيرها واكثر ما يدخل الى بلادنا من المصنوعات هو من اوربا والسبب في ذلك عجز الاهالي عن مضارعة الاوربيين وعدم افتهم تأسيس الشركات التجارية حتى اليوم . والنادر لا يعتدُّ به . ولا تزال في البلاد صناعات شرقية موروثة كلها تعتمد على عمل اليد اشهرها المنسوجات الحريرية والقطنية التي لها انوال عديدة في دمشق وحمص وحلب وجبل لبنان والبسط في صافيتا وغيرها . وقد ضعفت هذه الصناعات عن ذي قبل بمزاحمة اوربا لنا في المنسوجات ولكنها لم تندرس تماماً ولله الحمد بسبب تفوقها على المنسوجات الاوربية في المتانة والشيقة واللطافة وكون اكثر الاهالي المحافظين على الزيّ الشرقي يعتمدون عليها في الملبس والمفرش . وفي مصر الحالة بعينها واظن العراق كذلك . وقد وفق اللبنانيون للعامل الحريرية لا لنسج الاثواب بل لحلّ الغبالج (الشرانق) وارسال حريرها الى اوربا ولكنهم لم يقدروا ان يستغنوا عن ليون كما ان مصر لم تقدر في القطن ان تستقل عن مانشستر

التجارة

اما التجارة فهي خاصة السوريين . وسورية منذ دحى الله هذه الكرة ممرّ قوافل ومسرب متاجر من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس . وهم من اقوم الناس على التجارة يمتازون بها على غيرهم . وقد كان للفينيقيين في التجارة المكان الذي لا يزال يذكره لهم التاريخ وملأوا طباق الارض مستودعات ومراكز . كما ان العرب امة يفطرتها متجرة مسفار مولعة بالسيار وخوض البحار . ولقد كانت سورية قبل الحرب العامة تترقى في تجارتها برغم الموانع السياسية والامتيازات الاجنبية . ولكنها منذ الحرب العامة الى اليوم في تقهقر مستمر من هذه الجهة . وكيف يرجى نهوضها وقد انسلخت عن الاناضول وانقطعت عن العراق وانخرمت عروتها عن نجد والحجاز بل عن فلسطين التي هي الجزء الجنوبي منها فعلى من تتاجر سورية بعد اليوم ؟ يتكلمون عن المرفق الذي يحصل لسورية من تسيير السيارات بينها وبين العراق . وحبهات ان يسدّ بذلك هذا الثغور في صلاتها التجارية . فسورية فيما يأتي لا تنهض تجارتها الاّ باتحاد على الاقل اقتصادي

بينها وبين العراق ونجد والحجاز وفلسطين . ولقد جاءت الثورة الاخيرة ضغثاً على ابالة فازدادت حركة الاخذ والعطاء توقداً . ومن قبل الثورة كان معدل الصادرات من سورية لا يوازي ثلث الواردات

النهضة السياسية

ولم يقتصر الرقي عندنا في العلوم واللغات والاقتصاديات بل تجاوز الى السياسة والامور الاجتماعية فاصبح كثيرون ممن كانوا يهزأون بخدمة المصالح الوطنية العامة والمفاداة من اجلها و يرون الدهاء كلهُ في التزلف الى الكبار والاقوياء ومداراة الوقت مضطرين اليوم الى الاعتراف بوجودها و باهميتها والى احترام المتفرغين لها الناضحين عنها. وقد اثبتت فكرة الاستقلال الوطني في الطبقات كلها بعد ظهور الناشئة الجديدة سواء بمصر او بالشام او بالعراق حتى صار لا يجرؤ احد بمخالفتها جهراً خشية ان يسقط من نظر الامة او ان تبطش العامة بهِ. مع انهُ من سنوات قلائل كان كثيرون من وجهاء البلاد يتزلفون الى ممثلي الممالك الاجنبية متحنين امامهم خفوق اعلامهم فوق ربوع المشرق وقد كانوا يلتمسون ذلك رسمياً ولا يخجلون بهِ لان فكرة الاستقلال السياسي الوطني والنزعة القومية كانت عند اهل بلادنا اشبه بايماضات برق من افق بعيد او خيالات مهوّم بين النوم واليقظة. وكان سبب النفرة من الاوربي هو اختلاف الدين فقط كما ان تمني ولايتهِ هو عند اتفاق الدين . ولا نقول ان هذه النزعة الدينية لم يبقَ لها اثر وان النزعة الوطنية اصبحت هي السائدة دون غيرها. لكننا نقول ان الفارق الديني لم يعد هو وحدهُ المتصرف باهواء النفوس بل جدّت فكرة وطنية ترمي الى استقلال كل قطر بنفسهِ وادارة امورهِ بيدهِ واخذت هذه المبادئ تكون عمدة الجميع وان شذّ عنها شُذّاذ لم يجسروا ان يناهضوا مبدأ الاستقلال نفسهُ فانما يقولون بوجوب مراقبة اوربية الى اجل مسمى الى ان تكون تمرنت الامة وتأثل فيها النظام والانتظام

الثورة السورية

فالثورة السورية هذه المرة تختلف عن كل ما سبقها من الثورات اذ الثورات التي كانت تقع في زمن الترك لم تكن منها واحدة مبنية على نزعة قومية بل كانت العساكر التركية تزحف الى جبل الدروز وهم عرب فترافقها قلوب اهالي سورية وهم مثلهم عرب . ولا ينزع عرق العربية يومئذٍ باحد . وكان الدروز من جهتهم لا يثورون لان الدولة تركية بل اما لانهم يريدون التملص من دفع ضرائب او غرامات ضربتها عليهم اولانهم

بطشوا ببعض جيرانهم فارادت الدولة ان تؤدبهم فقاموا يدفعون العساكر انزاحة لمهمة التأديب . بخلاف الثورة الحاضرة التي هي ثورة وطنية قومية صرفة ليس لها غاية سوى تحرير الوطن من ربقة الحكم الاجنبي وان لا تعلو على العرب في اوطانهم يدٌ لا اوربية ولا تركية ولو زحف الترك على سورية مكان الفرنسيس للقوا المقاومة نفسها. وان القائمين بالثورة هم المفكرون والادباء والمخرجون بالشهادات من مدارس باريز وقد التحق بها عدد من الطلبة الذين لا يزالون في المدارس ولم يتموا تحصيلهم . وقد كان العرب البادية والدروز والعشائر اهل السنان والعنان هم الذين يثورون دون اهل القرى والمدن فصار اليوم أهل دمشق واهل غوطة دمشق الذين لم يكونوا يعرفون الاّ تقليب المرّ والمجرفة يقلبون البنادق وانكرات البدوية المحشوة بالديناميت ويهجمون على نيران المدافع مستبسلين مستميتين . لا جرم ان هذا انقلاب عظيم . وتجد هذا القروي يقول : لا نرمي السلاح الاّ عند استقلال الوطن . و بالاختصار ترى الامة العربية كلها من اطراف حلب شمالاً الى عدن وحضرموت جنوباً ومن البحرين المتوسط والاحمر غرباً الى البحرين وخليج فارس والاهواز والسليمانية شرقاً تتخبط مخاضاً شديداً الى الاستقلال التام عن كل دولة اجنبية أية كانت وقد دبّ دبيب هذا الاحساس في خاصتها وعامتها ووضعت نصب نواظرها الاستقلال والوحدة على شكل خاص يكفل لكل مملكة ولكل امارة استقلالها الداخلي مع تعيين الحدود بينها وبين جاراتها ويضمن الوحدة في المكوس والبريد والتلغراف والامور الخارجية والجيوش . هذه الفكرة العالية سارت بين العرب باجمعهم في هذه السنوات الثمان التي عقبت الحرب مالم تسرهُ في ثمانية قرون من قبل . والمفكرون من العرب واثقون بأنهُ لا بد من تحقيق هذه الفكرة عاجلاً او آجلاً بواسطة المدارس والجرائد والاندية والجمعيات والسكك الحديدية والبواخر والسيارات والطيارات وكل ما يقرب بين الافكار والاقطار . وقد نظروا الى مثال لهذا الاتحاد العربي الحالي في الامبراطورية الالمانية كما كانت قبل الحرب او في شكل سويسرة او شكل الولايات المتحدة الاميركية . وكيف كان الشكل فمبدأ الاتحاد العربي متفق عليهِ ولم يخفَ هذا الاستعداد على الدول الغربية الطامعة فقد بدأت هذه الدول تفهم أن ارض العرب صارت غير صالحة لثبات الاستعمار . و بهذا من انواع النهضة كفاية

لوزان شكيب ارسلان